ألإيمان عند رومانو گواردیني[1]

ألأب حبيب هرمز النوفلي

مقدّمـــة

نؤمن بالله وفي الله ، وهذا الايمان كصلة شخصية ، بدأ منذ حوالي أربعة آلاف سنة ، من ابراهيم وحتى آبائنا الذين يُعمّدون اليوم في الكنائس .

لكن هل نحن اليوم بأمان معه ؟ أي هل عقّلنا الايمان ، وعرضناه لأبنائنا الذين يستقبلون معنا الألف الثالث ؟ فمن اجل تسهيل الخوض في مغامرة الايمان ؛ كان هذا المقال الباحث في أفكار اللاهوتي الألماني گواردیني .

* **ألإيمان سر** ، وهذا السر يمتلكه المؤمن كخبرة في نفسه وفي الآخرين ، فيستطيع ان يفسّر أسباب كونه مؤمنًا من خلال نعمة الكشف الإلّهي الممنوحة له ، أي حضور الله فيه . ولكن الحياة سرٌ مريك ، لذلك يبَدأ المؤمن بالتساؤل عن معنى الايمان ، ليصل الى ان الله قد وجـده يوماً ما ، فيتزعزع الكثير من أفكاره بخصوص مختلف القضايا التي تشغل باله يوميًا ، فينـزع ، إما الى الإكتفاء الذاتي او الى الاستمرار في الصراع التموّجي (أي شعور الانسان بالإنتماء او بخيبة الامل) . ان هذه الصراعات تؤدّي الى شعور الشخص بنبضة الانتماء برغم معايشته لخيبات أمل مستمرة بسبب الضعف البشري ، وعندها يكون سر المعموذية مدخلا الى سر خلق الله الأبدي .

توصف مرحلة الحياة الشخصية بعد المعموذية بأنها : حياة ما بعد الطفولة ، فتظهر فيها ملامح المراهقة بسبب تأثّرها بالمعطيات الحضارية ، فيدخل المؤمن في صراع نتيجة معايشته حقيقة أنّ لله وجوداً جوهريًا حقيقيًا يتفاعل في حياته مع ما توارثه من المعطيات المغايرة قبل المعموذية . فتبرز هنا أهميّة تحمّل المسؤولية - مسؤولية اعلان الايمان في وسط قاحل وصعب . لذلك من المهم ان يمارس المؤمن الصبر والثقة بالله بأنّ النبضة الاولى ستتبعها نبضات اخرى ، فيتقدم الايمان عنده حينما يؤمن بأنّ وجوده هو في الله ، ووجود الله هو فيه ، مثلما ان المسيحية موجودة في المسيح .

---

(١) رومانو گواردیني ١٨٨٥ - ١٩٦٨ ، من اللاهوتيين الألمان المعاصرين ، إهتمّ بالدراسات اللاهوتية في ألمانيا اثناء فترة انتشار الافكار النازية والشيوعية ، له العديد من المؤلّفات باللغة الانكليزية ، إذ تُرجم بعضها الى العربية ككتاب قيامة المسيح ، وأسبوع الآلام ، وحياة الايمان .

Romano GUARDINI, The Life of Faith. Paulist Press , New York, U.S.A, 1961.

* **محتوى الايمان** : من المهم التأكيد على نوعية الايمان وعمقه ، فما يسمّى احيانًا بالايمان هو خلاصة معرفية ، الايمان عطاء إلهي للإنسان ، إنه عطاء حب كامل يغمر كل الكيان الانساني الى درجة ان قيام وسقوط الشخص سيعتمد على العلاقة مع المحبوب ، وهذا يكشف للناس عبر التصديق العملي كجواب للنعمة المعطاة بواسطة تجلّي الله في المسيح الذي كشفه لنا ونكتشفه في الخلائق وفينا .

إن حياة المؤمن تنمو في النضج الانساني برغم صعوبة اكتشاف صورة الله الحاضرة لديه بسبب مقاومة رغباته وجهله والشرائع المغروسة فيه . لكن بالإنصات الى يسوع وتلاوة الصلاة الربيّة باستمرار مع العمل بإرادته ، يقترب نحو البنّوة له ، حيث يقوده الروح ، فيصير من خاصّة يسوع بعد ان يكون قد عرف انه ، من خلال الابن فقط ، يصل الى الآب ، اما الروح فهو اتحاد المحبة بين الاثنين . فالايمان المتجسّد بالمعموذية يولد وكأنه مأخوذ من داخل رحم الله الخالق ، لذلك نكون في المسيح وبقرابة خاصة مع الله ، فالمسيح يرينا الطريق والحق والحياة . هكذا الأشكال الايمانية هي ايمان واحد ، كما أن الاقانيم الإلهية هي إلـه واحد .

* **أزمات الايمان** : يقول المؤمن لأوّل وهلة : «انا مؤمن» لأن حقيقة الايمان أقنعته وقد جذبته القيم الايمانية ، ولكن هذه تبدو مشابهة لطريقة خروج الطفل من بطن امه ، فليس من السهل تبرير الايمان ، لأنه من جهة : سر إلهي عميق ، لأنه عمل الله ، ومن جهة اخرى عمل انساني له تاريخ ، وينمو وفق قوانين قد تحوّله الى تديّن مبهم .

يكون حال المؤمن ، في البداية ، كحال الطفل المحاط بوسائل الحماية من الغلاف الجوي . ومع النمو المستمر ، يختبر الألم والظلم والرغبات والإرباك بين الحقيقة والاسطورة ، وهذه مفيدة له ، خصوصًا في مرحلة المراهقة ، فهي كالحوافز الفعّالة ، اذ تؤدّي الى تطوّر شخصيته .

يتعرض السلوك الديني الى نقد فكري وتمرّد وتغيّر الأساليب ، لكن هذه كلها قد تكون بعيدة عن العقيدة الفلسفية ، ومع ذلك ، فهي تؤدّي الى صياغة جديدة للايمان بفضل شجاعة الروح .

لكن احد اسباب الأزمات هو ميل القلب والعقل الى المثالية ، وتحديد أسلوب معيّن للحياة الايمانية وانفعال المؤمن ، مما يؤدي الى فقدان الحيوية وعيش حالة الإحباط وخيبة الامل ، فيصبح معنى الوجود مبهمًا ، وتكون الحقيقة اقوى من المثاليات ، والظروف اصعب من الافكار النظرية . لكن المؤمن ينال البركة عندما يتقوّى لديه الشعور بإظهار النمو الحقيقي مع النزوع الى الشك معًا .

* **الإيمان والعمل** : تبدأ الحياة الجديدة عند المؤمن مع الايمان والوعي بأنه يعني

الشركة مع الآب والابن والروح القدس . واثناء الحياة العملية تظهر فترات الازمات نتيجة للتناقض بين الحياة المعاشة والتعابير الخارجية ، فيهتم المؤمن بالبحث عن التوازن من خلال الإدراك بأنّ عليه الدخول في حقيقة الايمان ، لا النظر إليه من الخارج فقط . وهذه تدعو الى الاهتمام بالمعرفة من اجل محاولة الجواب عن الاسئلة المثارة مثل : من أنا ؟

إن الخبرة العملية مهمّة لغرض الحصول على المعرفة ، وبدونها تبقى الافكار وحدها صعبة الادراك . كما انّ هناك معرفة يملكها المؤمن لنفسه ، وعليه ان يعيشها بالخبرة حتى تخرج الى الوجود الموضوعي . وهذا العيش محتاج الى تصميم قوي كي يحيا في الايمان بالله الواحد والثالوث وعمله الخَلقي والخلاصي معلنًا ايمانه ومشاركا إخوتَه دعوة الله له للرجوع اليه بأفعال المحبة .

* **الإيمان والمحبة** : يقول نيومان : ان الايمان يعني «القدرة على تحمّل الشك» . ان هذا الشك يقودنا الى مسألة علاقة الايمان بالمحبة ، حيث نقدر على التفاعل الايجابي في الحياة حاملين الرجاء ، والقدّيس بولس يربط الايمان والرجاء بما هو اعظم ، اي المحبة ، فهي حسبه تؤمن بكل شيء ، وترجو كل شيء .

ان العلاقة المذكورة اعلاه تأتي بتأييد منطقي وايماني ، فالعقل يستقبل المحبة كتأثير نقي للايمان بأن الله محبة . هكذا يتحدث بولس عن نقل الجبال والمحبة ، أما القدّيس يوحنا ، فانه يجمع كل شيء في المحبة . فالايمان ، الذي جذوره ليست المحبة ، يبقى معرّضا لعلامات الإستفهام ، كما ان على المحبة ان تكون حاضرة في بداية الايمان . ومثل المحبة ، هناك الحب ، الذي له أنواع شتى ، كالحب الشهواني : أي حب الرغبة في دمج أنفسنا مع الآخر ، وحب التبجيل . حب الصدقة مع متطلباته ، وحب التعاون ... لكن المهم في الحب ان يحترم الآخر في كماله ، ويميّز حقّه في ان يكون نفسه ، وبحدة الذهن يمكن مشاهدة حقيقة الآخر بعد اكتساب الخبرة من العلاقة .

اذا لم أُحبِ انا لأن أُحب الله ؛ لا أقدر ان «أراه» ، وستأتي صورته غامضة ، فعليّ ان أتهيأ للإلتقاء بالأعظم سمواً ، ولأنه كشف عن نفسه بيسوع المسيح والكلمة ، وان أُبني عقلي وأقوّي قلبي .

ان كلمة الله لا تُفهَم إلا اذا لُمس القلب ، وفُتح العقل ، ولكي يتم الاستعداد الحي لذلك ، نحتاج الى النعمة والمحبة . ان رؤية الاشياء بحق لا تتم إلا بحضور المحبة ، والمحبة تحتاج الى رؤية من أُحبه ، وهذه بدورها لا تتم الا بالايمان وحركة المحبة هذه تحتاج الى ان يخسر الانسان نفسه ليحفظها من خلال افعال المحبة السخيّة ، والعطاء الذاتي .

* **الإيمان والرجاء** : ألرجاء هو إعطاء معنى للوجود ، للطبيعة الإنسانية التي قد تتمزق وتموت في أيّ لحظة ، فلا أحد يقدر ان يحفظها غير الله . لنعد الى الوعد المعطى للبشر بعد الخطيئة ، وكيف ان الفداء اصبح في الطريق ، حتى جاء المسيح فكشف عن محبة الله للانسان بواسطته ، فمات لأجله ... فالله يقول للانسان : «أتمنّى أن اكون خلاصك» ، وهذا لا يعني إزالة العقبات أمام الانسان ، اذ قد لا يسمح الظلام للنور بالتغلغل احيانا ، ولكن هذا الإخفاق قد يكون هو الفداء ، فتكون علامة الهزيمة ؛ علامة القيامة . فقول يسوع للشاب الغني ثُمّ للتلاميذ «ما هو غير مستطاع عند الناس ، مستطاع عند الله» علامة رجاء تعتمد على محبة الله لنا .

ان اساس الرجاء ليس في العالم بل في الايمان المنتصر على العالم . الرجاء هو كبذرة تسقط من سفح صخري الى قعر الوادي لتنمو وسط الصخور برغم الشمس المحرقة والبرد القارس والرياح العنيفة ، أي بمعنى آخر ، أن الرجاء هو اليقين بان الحياة الهشّة ستنتصر برغم ما يبدو من الطبيعة والتاريخ والبلد والمجتمع والعلاقات الانسانية من بُعدٍ عن دعم نموّ هذه الحياة .

* **ألأشكال المختلفة للايمان** : إن الايمان هو الوحي الفريد من الله بواسطة المسيح ، ويحيا في الكنيسة الواحدة ، التي هي الدليل والمفسّر الوحيد للوحي الظاهر بأشكال مختلفة. ان هذه الاشكال تعرّض حياة المؤمن الى الخطر ، لأن هناك من ينبع الايمان من قلبه، فيحاول امتلاك كل شيء ، ويعتبر الامور ممكنة ، في حين هي صعبة عند الآخرين .

من أشكال الايمان ، سعيُ العقل نحو الحقيقة عبر التساؤل : ما الاشياء ؟ ما الوجود ؟ ... الخ . فيعيش المؤمن في الحقيقة ، ويؤمن بالوحي ، لأنّ القلب يطلب نوعًا آخر من الحقيقة المقدّسة ، ويعي ان الله هو النور ذو الجوهر المقدس .

الشكل الثالث للايمان ، يتّضح من خلال رجال تُلهمهم المثالية الاخلاقية ، والرغبة في عمل الخير ، والتغلّب على الشر ، متعطّشين الى العدالة ، وبذا يكتشفون الخير الحقيقي والجوهري امامهم في المسيح الذي هو الوحي المتحسس لإرادة الله ، ويتوجّهون نحو العيش على مثال المسيح واستلهام مشوراته ووصاياه ومُثله وأمثاله .

اما الشكل الرابع ، فهو ايمان الباحث عن النظام ، حيث يرى كيف يتمزّق الوجود بالمتناقضات والقوى اللاعقلانية ، فيتحمّس للسلام والنظام والوحدة بعد ان يكتشف في الله النظام والعدالة والحكمة والسيادة .

أخيراً ، هناك ايمان الاشخاص الذين يصعب عليهم التعبير عن انفسهم ، ربما رغبةً في التهرّب من العيش ، او لأنّ مزاجهم فاقد الحيوية ، أو بسبب تعب القلب . فيتوقون إلى ما يمكن ان يعطيهم خبرة كاملة عن الحياة المجرّدة من الشكوك ، بل متماسكة ، ولكن هذه

تُخفي فراغًا في كل مكان يؤدّي الى الإدراك ان الله وحده هو الشافي لهذا الجرح المتسبب من العيش في المظهر الخارجي ، فيبدأون في الدخول الى عالم الحقيقة الاصيلة والرجاء .

ان الايمان موجود في كل مكان ، لكن هناك نقاطًا عديدة للمغادرة ، ودوافع ومحتويات واختبارات مختلفة ، ومع ذلك فهي تشترك في نقاط كثيرة كالخير والحقيقة المضيئة والحب والنظام والرغبة والشوق .

* **المعرفة في الإيمان** : حسب القدّيس أنسلم ، لا معرفة بدون خبرة ، ولا خبرة بدون ايمان . ان الادراك بان الله هو الذي يتكلم مع الانسان ، يعني ادراك من هو الله ، ومن هو الانسان ، بقدر تعلقّ الامر بالله . وهذه تبدأ مع كلمات الايمان البسيطة ، وقبول السر ، ثم سعي المؤمن للفهم ، فيعبر باتجاه المعرفة الروحية من خلال الخبرة ، وهذه المعرفة موجودة أصلاً في يسوع المسيح وتعليم الكنيسة ، وهي معرفة استعدادية تؤدّي الى الايمان بالله المتكلم وإلى الإصغاء اليه .

الايمان هو طاعة الانسان لله ، وهذه الطاعة هي المؤسسة للمعرفة كثمرة تسليم الذات (أي العقل والقلب) ، وعندها تنمو الخبرة الايمانية من خلال عيش حقيقة أن الله يحب الانسان .

ان الحقائق الإيمانية ليست نظرية فحسب ، بل عملية ، بجعل الله مصدر ونهاية كل عمل، وهكذا نتحكّم بالحياة ، مستخدمين التأمّل وسيلةً لإدراك رسالة العناية الإلهية والثقة بها ، فتتجسّد الأفكار في الخبرة ، وتُرشد حياتَنا طبقًا لهذه الافكار .

ألايمان هو ان اعرف أنّ الله والانسان والعقل ، «حقائق» ، وأنّ «ابنَ الله» يؤثّر في التاريخ من خلال «الولادة الجديدة في الروح القدس» - أي الايمان أنّ المسيح مات من أجلنا، ويمكن ان يتجلّى فينا . ان هذا الادراك قد يستغرق وقتًا طويلاً متى يصل الانسان الى حد ان الايمان يحمله . هناك ايضا الخبرة الروحية ، تبدو احيانا غامضة ، واحيانا مثيرة، ولكن الله الحي قادر ان يسلّم الانسان الحب والحرية والنعمة إن هو صلّى حتى ينالها .

* **الإيمان والكنيسة (العقيدة)** : عُرفت الكنيسة قديمًا بأنها أمّنا ، هواؤنا ، أرضنا . اليوم ، وبسبب الحياة الفردية في الغرب ، أصبحت الفكرة غير مقبولة كليّةً ، بل يقال إن الله يتكلّم ، فعلّي ان اصارع نفسي وحياتي وعالمي كي أؤمن ، وهنا العزلة ! .

ألحقيقة إن ايماننا مستمّد من الوالدين والمعلّمين والكُتب ، من الخورنة ، وتقاليد البيئة، هكذا اضطرم ايمان كل شخص بايمان من حواليه ، فالله يصنع الايمان ، ويدعو الفرد ثم يوقظ الايمان في قلبه من خلال النعمة المرافقة للاشياء الانسانية ، وهنا يكون الإتصال بأولئك الذين تسلّمنا حياتنا منهم ، اي الكنيسة .

الكنيسة هي «نحن» في الايمان ، هيكل حي هائل ، مؤسسة غرسها المسيح في التاريخ، مدعوّة الى القداسة كي تكون ثمرة كلامه ، مناضلة ، فيها تعلّقت القوة الفدائية لله بجذور

الوجود . هي عروس المسيح ، الأم الطاهرة لكل مؤمن ، مبدأ اصلي تنبع منه حياة الفرد ، وأرض تسنده ، والجو الذي يتنفس منه . إن للكنيسة دوراً ماديًا ، والله يعمل من خلالها ، فتصبح معلّمة ، وهكذا لحياتها معنيان : حياة طبيعية بسيطة في عالم الاشياء ، والثاني حياة عقائدية مرتبطة بالنعمة وجوهر السر الافخارستي .

ان العقيدة علامة وعي الكنيسة لذاتها ، وهدفها المحافظة على سر الوحي ، إذ تتوغّل كلمة الله في العالم الانساني ، فيتكلم المسيح من خلال الكنيسة . وبرغم أنّ للعقيدة جانبًا إذلاليًا ، فانها تمنح الخبرة والعزاء لكل مؤمن حينما يواجه العالَم . فهو بحاجة دائمة الى اتخاذ موقف راسخ امام الحاجة الى تحمّل مسؤولية الوجود التاريخي للكنيسة .

* **الإيمان والكنيسة (السر)** : يرتبط الايمان بالعماذ في رسائل القدّيس بولس . فيقصدان الشيء نفسه ، أي ان الله يغرس بذرة حياة جديدة ، فتحمل الشجرة القديمة ثماراً جديدة ، فالله يتمنّى ان يصير الانسان ؛ المسيح حقًا .

لقد تدخّل الروح القدس في مسيرة تاريخ العالم منذ حَدَث العَنصرة ، وهكذا حيثما اجتمع إثنان او ثلاثة بإسم المسيح ، تكوّنت كنيسة ، ولادة جديدة ، قوة المسيح نفسه ، ونعمته وقوة الروح القدس .

يربط القدّيس يوحنا ، كبولس الرسول ، بين الايمان والافخارستيا حينما يصف الوعد في كفر ناحوم (يو ٦) . إن الشخص المؤمن ، هو شخص يتغذّى روحيًا وبصورة جماعية ، وهكذا نقرأ في كتاب اعمال الرسل الإثني عشر (الديداكي) ، إنه حينما تجتمع البذور لتصير خبزاً ، والثمار تصير خمراً ، فالمتناول (حسب القديس أوغسطينوس) ، يتقبّل المسيحَ نفسَهُ ، بل المسيح هو الذي يتناول ويّتحد بالمتناول .

إن الله هو الذي يُمسك بالانسانية المتَوحّدة من خلال الكنيسة ، كي يصل الى الفرد ، وهكذا يعلن الله إيمانه بهم . فالله يخلق سرَّ الإتحاد به ، ويتيح لنا القدرة على المشاركة في هذا السر الآن والى الأبد .

* **الخاتمة** :

الايمان هو سرٌ يختبره الانسان في حياته ، فينتقل من محطة ايمانية الى أخرى ، مثلما يتحوّل في حياته الطبيعية ، إذ ينضج عبر المعرفة وحياة العطاء وعلاقات المحبة ، متجاوزاً كل ما يقاوم رغباته .

تبدأ حياة المؤمن بالمعموذية ، ثم يتعرّض الى ازمات ايمانية يمكن تجاوزها عبر العمل وتعميق معنى المشاركة التي تكشف المعنى العميق للايمان المرتبط بالرجاء والمحبة . ولكن يكتشف المؤمن احيانا أنّ ايمانه في خطر بسبب تعدّد منابعه ، والأخطار المحدقة به ، فيبقى البحث عن الخير والحق والنظام من الامور الأساسية لحمايته . وهذا يعني إحترام العقيدة والحياة الجماعية وعيش السر المسيحاني .